المحاضرة الرابعة:قضايا الرواية المغاربية التاريخية والثقافية.

تؤسس الرواية عالمها المتخيل من خلال إقامة علاقات مع ألوان وحقول إبداعية أخرى ولعل هذا ما يثير الانتباه،إلى إن الرواية بوصفها جنسا أدبيا تجاوزت في علاقاتها الأجناس الأدبية ومدت الجسور بينها وبين حقول معرفية كثيرة أبرزها الحقل التاريخي.

إن الرواية التي تحاور التاريخ رواية تحاول إثارة الحاضر استنادا إلى ما حدث في الماضي وعليه يمكننا القول إن الرواية تهدف من خلال تعاملها مع التاريخ أساسا،إما إلى إعادة بعث ذلك التاريخ وتأكيد قداسته،وإما لنقده وتبيان ما أغفله أو تجاوزه أو لم يمنحه حقه ذلك أن التاريخ يكتب غالبا وفق قناعات نخب سلطوية تروم إحاطة ماضيها بهالة من الرفعة لن تتأتى إلا بطمس وتغييب تاريخ صناع التاريخ الحقيقيين،إن مدون التاريخ الذي يعتبر صاحب سلطة في كتابة التاريخ لا يعدو أن يكون في غالب الأحيان أداة تحركها النخب وفق ما يخدم مصالح ضيقة فالتاريخ ملك لمن انتصر.

يعرف **جورج لوكاتش** الرواية التاريخية بأنها"رواية تثير الحاضر ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق للذات."وهي بالتالي"عمل فني يتخذ من التاريخ مادة له لكنها لا تنقل التاريخ بحرفيته بقدر ما تصور رؤية الفنان له وتوظيفه لهذه الرؤية للتعبير عن تجربة من تجاربه أو موقف من مجتمعه يتخذ من التاريخ ذريعة له."

نستطيع القول أن الرواية التاريخية يتجاذبها هاجسان أن تكون أمينة للتاريخ ملتزمة بالحقائق الكبرى دونما تغيير أو تزييف والثاني استيعاب الرواية التاريخية للبطل الروائي وللحبكة الفنية المتخيلة،فالروائي في بناء معماره الروائي الجديد يقدر المسافات،يشكل الألوان،يصور الأماكن والحالات،يركب الحوارات،يبني المشاهد،يتعمق في الأمزجة،يفسر المواقف،يصوغ ردود الأفعال،ينزل إلى حيث تمفصلات المجتمع في مكان وزمان معينين.

التاريخ حاضر بقوة في الرواية وكل رواية هي تاريخ سواء اعتمدت على التاريخ بشكل مباشر في التقاطع مع أحداث وأزمنة،أو اعتمدت باستلهام بعض أحداثه أو اتكأت على تمفصلاته،أم كانت تفصيلا مرويا عنه،وتتماثل عناصر بناء الرواية مع عناصر بناء التاريخ فهما يشتركان في سرد أحداث وشخصيات إلا أنهما لكل منهما خصوصية،فإذا كان التاريخ عليه أن يطابق الواقع إلى حد كبير من خلال آليات متعددة كالعودة إلى الوثائق الرسمية والمخطوطات والمذكرات لكبار الأعلام،فإن الرواية لا تحتكم إلى الواقعي إنما تنسج جزءا من التاريخ وتبني عليه متخيلا سرديا،أي لا ينبغي للرواية أن تتطابق مع التاريخ ولا أن تتطابق مع الواقعي لأنه في هذه الحالة ستخرج من إطار الرواية بمفهومها الفني لتدخل في إطار التاريخ بمفهوم المذكرات والوثائق التاريخية،فالرواية تعتمد على المتخيل السردي لذا فإن تقنيات استحضار التاريخ كثيرة ومتعددة.

اتكأت الرواية على التاريخ منذ نشأتها بوصفه موضوعا أو حكيا يربط بين الواقعي والمتخيل في بناء سردي يعيد صياغة التاريخ تارة ويسائله تارة أخرى وقد تعددت أشكال حضور التاريخ نذكر منها:

- **بوصفه علامة أو أيقونة:**مثلما حدث في ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور التي اعتمدت فقط على حدث سقوط الأندلس بوصفه أيقونة ولم تكن تناقش سقوط الأندلس تاريخيا بمطابقته مع الواقع،وإنما تناولت هذه المرحلة المنسية في تاريخ الأندلس وبدأت على مدى 100عام أو يزيد رصد سيرة أهل غرناطة بعدما تم تسليم الأندلس،ومعاناة أهل الأندلس والتحول من الإسلام إلى النصرانية وجرح المورسكيين وهو شكل من أشكال حضور التاريخ .

- **الحضور التاريخي بوصفه متكأ أو خلفية مرجعية:**مثل أن تأتي رواية فتستند على التاريخ بوصفه خلفية مرجعية فقط،لا تناقشه لكن تناقش الشأن الاجتماعي في سياق الاعتماد على هذا التاريخ الكامن في هذه الخلفية.
- **حضور التاريخ بوصفه حدثا مركزيا:**مثل رواية الزيني بركات لجمال الغيطاني التي اعتمد فيها على استحضار شخصية القاضي الزيني وعلى نظم حكمه،ثم بنى عليها تاريخا متخيلا يتعلق بمناهضة الظلم والفساد والسلطة في مصر القديمة والمعاصرة في مرحلة الثمانينيات.
- **حضور التاريخ بوصفه أسطورة:**أي يستلهم من الماضي بعض الرموز الدالة على الأساطير ليوظفها في سياق رواية جديدة.
- **الحضور للجدل مع التاريخ لاستحضار التاريخ لتعضيد الصوت أو مساءلته مرة أخرى:**مثل رواية نجيب محفوظ أمان العرش التي استحضر فيها كل الحكام الذين حكموا مصر منذ مينا موحد القطرين وحتى السادات ثم استكمل مع بعض الزعماء مثل:مصطفى النجاس وأوقفهم أمام محكمة فرعونية مشكلة من أوزوريس وايزيس وحورس وبدأ محاكمتهم مختزلا تاريخهم ومانحا لهم فرصة الرد،ومصدرا لهم الحكم من المحكمة الفرعونية إما بالجلوس في مجلس الخالدين أو الطرد من هذا العالم إلى الجحيم.
- **حضور التاريخ بوصفه نصا موازيا:**مثل الروايات التي تناولت حادث سقوط الأندلس كرواية صبحي موسى المورسكي الأخير،حيث يحدث هنا تواز بين حالتين أو تاريخين بين تاريخ حفيد ينتمي إلى المورسكيين منذ 4 قرون ويزيد وحادث الثورة المصرية بدءا من 25 يناير 2011 وما بعدها،لكي يتوازى التاريخان ويتقاطعان في كثير من الأحداث ويحدث ملء الفجوات أو الوصلات التي كانت ناقصة بين القديم والحديث.

➢ **نماذج حضور التاريخ في الرواية المغاربية:**

تقنية العودة إلى الموت أو ما يسمى بسرديات العودة إلى الموتى وتراثهم وحكاياتهم حاضرة في السردية الجزائرية ونجدها عند مبدعين من أمثال:رواية الزاوية المنسية لليامين بن تومي وكفن الموت لعبد الرزاق بوكبة،شبح الكليدوني لمحمد مفلاح،ورواية الرميم للأزهر عطية.

- **رواية الرميم للأزهر عطية:**

حاولت الرواية المزج بين التاريخي و الراهني في حديثها عن محاولات إعادة جمجمة شهيد لرميم جسده قبل الاستقلال وبعده،بعد أن استشهد في إحدى المعارك ضد المستعمر الفرنسي، فما هي العوالم الدلالية للرواية؟ وما قصة الرميم فيها؟

تتشكل الرواية من ثلاثة فصول يحمل كل واحد فيها قصة المجد الثوري الجزائري لكن بتقنيات وتصورات مختلفة مرتبطة بعضها ببعض،فأرملة الشهيد" الكاملة "لا تتوقف عن سفرها المفجع الحزين بحثا عن رأس زوجها الشهيد،وبعد أن تتعرف الزوجة على جثة زوجها الشهيد رغم قطع رأسه بقنابل فرنسية تسعى لجلب الجثة ودفنها تحت شجرة الزيتون بالقرب من المنزل من دون أن يكتشف الفرنسيون الأمر، وهنا يقدم السارد وصفا صوفيا للشهيد،تظل صورة الجثة مقطوعة الرأس عبر كامل الرواية تحرك وجدان الأرملة وتخلخل فكرها وتتحكم في حياتها،فما هي الدلالة والرمزية؟ ألا يحمل مشهد اختفاء رأس الشهيد دلالات اختفاء قيمه وأفكاره وأحلامه في الجزائر المستقلة؟ ألا تحمل صورة الرميم الذي لا رأس له دلالة غياب رأس(مبادئ / فكر /أخلاق) هذا الوطن وتراجع أبنائه عن الوفاء للشهداء؟

و إذا كان الرميم هو البالي من العظام، فقد يبحث الكاتب عن البالي من القيم والمبادئ؟ بل وكأنه يتساءل في الأبعاد الرمزية للرواية:هل تحولت قيم الشهيد ورموز الشهادة وقداسة الثورة إلى رميم؟؟؟

تحيل الرواية في عمقها إلى أن الذين صنعوا المجد النوفمبري الخالد لم يتمتعوا بالاستقلال فمنهم من مات ومن عاش عانى في صمت بعيدا عن الأضواء والامتيازات

وعانت الجزائر التي ماتوا لأجلها من خيانة بعض زملائهم في الكفاح لأنهم لم ينقلوا قيم الجهاد والتحرر بسبب انشغالهم بالسلطة والمال والعقارات والتحكم في الوطن باسم الشرعية الثورية لا الشرعية الدستورية والديمقراطية؟ يؤمن الكاتب بشرف الجهاد وقداسة الشهادة،لكنه بقي مصرا على الانتقال بالرميم من قبر إلى آخر.

نقرأ في الرواية كلمات السارد عن الشاب" الربيع "ابن الشهيد":سيبقى هذا الرميم الذي ما زال يحتفظ به بدون جمجمة،وإنه لشيء مؤسف ومؤلم حقا،هل سيبقى هذا الرميم هكذا مشردا لا يعرف الراحة؟"وهذا السؤال المحرج لا ينطلق من العمق النصي الفني فقط و إنما هو سؤال يلاحق المجتمع الجزائري ككل ذلك فالكثير من أسئلة التاريخ والتراث لم تحضر في النصوص الأدبية أو الفكرية فحسب،بل هي من جملة القضايا التي تفتح النقاش الكبير والمتنوع في الإعلام وفي المجتمع.

- **رواية أسرار صاحب الستر لإبراهيم الدرغوثي:**

يضم النص الروائي لإبراهيم الدرغوثي "أسرار صاحب الستر"مجموعة من الشخصيات التاريخية التي أخذت حيزها الحقيقي في الذاكرة العربية وانزاحت بأسلوب أدبي فني إلى العمل الروائي،إذ لم يتوان المؤلف أن يكشف عن بعض الشخصيات التاريخية التي دارت حولها الشبهات كشخصية الوليد بن يزيد الأموي وهو حسب ما ذكر القلقشندي " مآثر الأنافة في معالم الخلافة" شاعرا فصيحا وكان مصروف الهمة واللهو إلى الأكل والشرب وسماع الغناء،إن الرواية حين تسترجع التاريخ تقحم الشخصيات عبر الحكايات ليس كزينة فنية ،بل لوظيفة رمزية دلالية تقارب الحقيقة الواقعية بالخيال،من خلال إسقاط الماضي على الحاضر ولتشكيل وحدة الموقف بين تاريخنا العربي وحاضرنا وهو انتقاد واع وصريح لسياسات البلاد العربية التي تعمل على الترقيع دون انتباه إلى ما يعيشه الفرد المغلوب على أمره من ظلم،لقد كرست الرواية لقضية السياسة في العالم العربي وما تتسم به من شذوذ وإسراف

وعدول عن القيم والسياسية والاجتماعية والفكرية،وقد فضل أن يعالج هذه المعضلة بتركيزه على شخصية الطاغية ووقع اختياره على الوليد بن يزيد الأموي وقد دأب على التنديد وبدون هوادة بالسلط المستبدة الحاكمة واعتبرها محور الشر لأنها تتحكم في العباد فعمل الكاتب وسع طاقته على مقاومتها بالكتابة والتوثيق والتأريخ والتشريح لهذه المظالم،وكان حضور هذه الشخصية طاغيا في الرواية:تصول وتجول،ترقص وتتعربد،تفرح وتغضب،تحب وتكره،تحزن وتشقى،تمارس دور الجلاد والضحية في آن واحد .

بعض المراجع المعتمدة:

-سليم سعدي:مساءلة الموتى وإحياء ذاكرة المنفى قراءة في رواية شبح الكليدوني لمحمد مفلاح،مجلة إحالات،ع3،جوان 2019.